المقالة الرابعة والثلاثون[1]
في مدح يوليانوس الناسك

إن هذا الفاضل في النساك كان مملوكاً وكانت أوائله كما حدثنا غير مرضية ، عاش فيها بالقبائح ثم أفضى أخيراً إلي المعرفة وسار سيرة حسنة ، وأصابته شدائد من سيدة في مدينة بعلبك التي عند لبنان لأنه كان أشترك في عبادة الأصنام ولما مات مولاه زهد في العالم وأحب الرب بكل نفسه وقلبه حتي قوم تقريباً كل فضيلة .

لأنه أقتنا تخشعاً كثيراً وتواضعاً زائداً ولم يصر نظير القوم الذين بعد انصرافهم من العالم يتوانون في تقوى اللـه فيهلكون لأنَهم يبذلون ذاتَهم للتواني والبطالة ولعدم عمل وصايا اللـه ولا يمنطقون احقائهم بالعفة فيغرقون أنفسهم في قعر المساوئ حتي أن قوماً وهم لابسوا زي الديانة البهية تورطوا في الرذيلة من أجل شهواتَهم جاعلين ذاتَهم مسكناً لعسكر الشياطين .

وقد اشتملني الرعب في مكان كنت جالساً حيث رأيت راهباً شالحاً رزق ابناً صغيراً من المعصية فلم يستعف أن يقدمه ذبيحة للشيطان من أجل محبة المال لكن معونة اللـه سبقت فخلصت الصبي وذلك أنه أخذ إلي موضع تحت الأرض حيث قيل له إن فيه ذهباً كثيراً مخبوءاً خبأه الذين عملوا الناووس ، فلما عاين الشيطان علامة الصليب التي لبسها الصبي لم يجترئ أن يضره ، فلما عرف هذا أخفى الأمر وغرضه وقام وأنتزع العلامة من الصبي فصار أيضاً صوت من المطابق إذ قد أفرز بجملته للـه فهو غير مستعمل ولما تخلص الصبي بأمر بديع حدثَ بالأشياء التي لحقته كلها وبالنصر الصائر إليه من ربنا يسوع المسيح وصار هذا الأمر شائعاً حتى أجتمع مجمعاً من الآباء القديسين للفحص عنه .

هذه يا أخوتي صنعتها الونية في الصلاة الجامعة وعدم مداومة الصلاة والتيقظ فيها لأن الترتيل والصلاة بتواضع فكر يخففان العقل من الآلام المحظورة ويجعلان النفس يينع شبابِها لاشتهاء الخيرات السمائية وكما أن محادثة اللـه بالصلاة النقية تجعل في النفس تواضعاً كذلك مخاطبة الملوك تنتج استعلاء رأي الذين لم يقتنوا المخافة الفاضلة .

فمصاحبة الملك هي إذاً أتون وموضع التصفية يوضح المختبرين والمنافقين، فأما الذين قدام أعينهم اللـه كل حين فهم بالتقوى المفضلة يرفضون آلام الأمور المنظورة فلذلك مغبوط الزاهد في العالم المتصرف في رفقة أناس قديسين وفي طاعة الآباء الروحانيين المستكمل سيرته بضمير نقي فإنه لا يخزى في قيامة الصديقين .

والويل للذي يخالط ويعاشر قوماً لا بر فيهم ولا طاعة لهم فإنه سيبصر أياماً مرة لأن التأمر والتفرد بالرأي وأتباع العزم بذاته تجعل الإنسان مقفراً ومسكيناً من الأثمار والمواهب الروحانية ومن يعمل كل أفعاله بإنصاف فهو مغبوط .

فأما المغبوط يوليانوس فإنه أمات ذاته من الأمور العالمية وأختار الزي النسكي وجلس في قلايته، وبقرب قلايته كانت قلايتي ، وكانت قلايته تجمعنا كلنا فكان يزورني في قلايتي وكنت أزوره في قلايته لأنني كنت أنتفع من محادثة ذلك الإنسان وأتعجب إذا أبصرت مثل ذلك العلم في إنسان أعجمي لأنه كان أصلة من النواحي الغربية وكنت أمجد اللـه الذي لا يشاء أن يهلك أحداً بل يجتذب الكل إلي التوبة .

---

[1] كتاب: مقالات مار إفرآم ملفان الكنائس السورية ومعلم الأرثوذكسيين أجمع
وقف على طبعه أحد رهبان دير السيدة العذراء البراموس في برية الأنبا مقاريوس
طبع سنة ١٨٩٢

وكنت أتذكر الفصل الإنجيلي القائل : حقاً أقول لكم إن كثيرين يأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع إبراهيم واسحق ويعقوب في ملكوت السموات وبنو الملكوت يخرجون إلي الظلمة البرانية هناك يكون البكاء وصرير الأسنان .

وأتنهد قائلاً : يارب نجينا من الظلمة البرانية ومن صرير الأسنان واذكرنا في سرور شعبك وشاركنا بخلاصك لنعاين في صلاح مختاريك ونفرح بسرور أمتك ونمدح مع وارثيك اذكرنا يارب كاللص إذا جئت في ملكوتك وفك أجسادنا من القيود بمجد نعمتك مؤهلاً إيانا لاختطاف الصديقين في السحب لنرث جبلك المقدس بشفاعة قديسيك آمين .

وكان المغبوط يوليانوس قوياً لكنه إنسقم من كثرت النسك لأنه سلك وراء القديسين وكان لا يعرف الكتابة فحرص أن يتعلمها هذا المحب للـه وكانت له قلاية يسكن فيها مع ذاته وفيها مضجع صغير فلم يكتفِ بضيقته حتى ابتنى له داخلها موضعاً صغيراً كقبر وجعل مدخله ضيقاً جداً .

فكان يدخل فيه كأنه في قبر ويصلي باكياً وكان يعمل بيديه قلوع المراكب وأحب التخشع والبكاء جداً اللذين لم يحبهما آخر حتى أن المجتازين بقلايته كانوا يسمعون صوت بكاءه ، لأنه كان يبكي كمن دفن أباه أو ابنه وحيده ويندب بلحن لأنه كان يضع خطاياه بين عينيه ويبكي بتوجع ليلاً ونَهاراً والليالي كان يستعمل فيها نوماً يسيراً لأن الاهتمام بالمجازاة كان أستنهضه إلي الحرص .

فأما مقدار جملة المحن والأحزان التي أحتملها من الأخوة المتوانيين فلم توصف ، وكلها كان يجيزها بالتواضع والصبر غير منضر منها ، وكيف كان سالماً ممسكاً صبوراً وديعاً ورعاً لا قنية له، لأن الجالس في البرية بأمتعة يكون ضيق الذهن مرتعداً في كل وقت وموضع ، وأخيراً يصير صيداً لفاعلي الشر فأما الفاقد القنية فذاك يكون مطمئناً من الاغتيال .

وكان أيضاً بلا كسل وجزيل النشاط في العمل ممتنعاً من القرف متواضعاً بالكلام في الفعل في المشي لأنه لم يكن مثلي ومثل نظرائي المتوانيين ممضياً أيامه في التواني بل أستكمل بالتخشع سائر أيام حياته ، وكما أن الجالسين في السجن مقيدون إذا خرجوا إلي مجلس الوالي يرتعدون من الخوف والجهاد كذلك المغبوط يوليانوس كان يتذكر متواتراً مجلس قضاء المسيح المرهوب ، فلذلك كان يبكي دائماً مكرراً التفكر في الحكومة المنتظرة ، حيث يكون التخشع والدموع والتواضع ، فلم يوجد هناك عدم الترتيب ولا أمر طالح بل حسن الترتيب وجملة الصلاح وإذ لا تحضر هذه ينقص أكثر الغرض المطلوب .

وكان يعتفي من مخاطبة النساء ، ويقطع سائر أسباب اللذات الباطلة ومتي ما ضرب الناقوس للصلاة الجامعة كان يجتهد أن يسبق فيلتقي كل أخ يجئ إليها هكذا كان يقف في الصلاة حاوياً نظراً ثابتاً كأنه ماثل أمام عرش ربنا يسوع المسيح نفسه .

وفي أحد الأيام قلت له ترى من يمحوا الكتب المقدسة التي هنا لأنه حيث يكون مكتوباً اسم اللـه أو الرب يسوع المسيح أو المخلص أجد حروف هذه الألفاظ المكتوبة ممحوة . فقال المغبوط : لا أكتم عنك شيئاً إن الزانية تقدمت إلي المخلص وقبلت قدميه بعبراتِها ومسحتهما بشعر رأسها وأنا إذا قرأت الكتب فحيث أجد اسم إلهي مكتوباً أبله بدموعي لكي ما أخذ منه غفران الخطايا .

فأجبته مسروراً : إن اللـه متعطف علي الناس وقد قبل نيتك فأطلب إليك أن تشفق علي الكتب . فقال لي : لا ينتدى قلبي إن لم أبكي قدام الرب إلهي .

فنسك بحرارة متوقدة أكثر من خمسة وعشرون سنة وتوفي بالرب ، كان متصرفاً في الاضطهاد وفي الطاعة فصار مستحقاً للتطويب من القائل : الطوبى للمساكين بالروح فإن لهم ملكوت السموات. فعيناي تُهملان الدموع علي مفارقة إنسان اللـه .

قال هذا المغبوط وقتاً ما لأحد الأخوة : إن أخاً رام أن يدخل إلي البرية الجوانية يلتمس أناساً يبصرون بمناظر العقل فشِر عليَّ من أجل الرب إن رأيت أن أذهب معه أم لا ، فلما علم الأخ أنه ذو

عمل . قال الأفضل أن يسكت الإنسان ويبتغي في السكوت الكمال لأن من يستفحص عن أمور صغار غير ثابتة يجول في البرية فليس ذلك حسناً .

فقال له المغبوط : ما هو الكمال وما هي الأمور الصغار الغير ثابتة فقال له الأخ : الكمال هو غاية كل قول ، وكل فعل . لأنه قد كتب نَهاية القول أسمع الأمر جداً أتقِ اللــه أحفظ وصاياه ، فأما التي تعرض لكل واحد منا في هذا الدهر إن كانت محزنة وإن كانت صالحة فلها نَهاية فلذلك تبطل بالزمان ، فأما التي تعرض عند الخروج من هذا العالم فهي غير مائتة فليكن في عقلنا يوم الدينونة والمجازاة ، ليكن عقلنا كاملاً بالرب ولا نعمل كأثنين سافرا إلي بلدة بعيدة فضجر أحدهما في الطريق وطفق يسأل الذين صادفهم عما لقيهم في الطريق قبل عشرة علامات منه ، فأجابه أولئك أن الطريق صعبة . فسألهم قائلاً:وبعد الطريق الصعبة ماذا ؟ فقالوا أرض يانعة مخضرة .

فلما رآه رفيقة يسأل عن أمور الطريق باهتمام قال : أكفف أيها الرفيق عن الاستفحاص عن أمور الطريق التي أنت عازم أن تسلكها مثل ساعٍ سباق لأن الطريق تشبه العمر الإنساني فمن أجل هذا يجب أن نترقب أكثر لا ما نصادف في مسيرنا فيها بل ما يعرض لنا بعدها ولنطلب كيف سبيلنا أن نستوطن في تلك البلدة براحة ، البلدة التي نزمع أن نقطنها دائماً بعد كمال العمر وانصرافنا من هنا .

ترى أين يكون مسكننا في ذلك الدهر ؟ أين يكون حظنا في العمق أم في العلا ، في النياحة أم الأوجاع ،في الظلمة أم في النور ، في النار أم في النعيم؟ هذه فلنستبحث عنها روحنا وليتكلم بِها فمنا، لا يبعد مثل هذا الاهتمام من قلبنا ما دمنا في هذا العمر الوقتي ولنتجنب الذين يرومون تعويقنا عن مثل هذا الاهتمام بما أنْهم مسببون الطغيان والهلاك لأن ليس أحد مضى إلى هناك فعاد أيضاً إلي هذا العالم.

فلنهتم إذاً أيها الابن بما نزمع أن نظهر به من الدالة قدام ملك المجد ، ولنحرص أن نضع أنفسنا في تعطفه ليعضد ضعفنا ولا سيما حين نتعرى من كل لباس إنساني لأنه لابد أننا سنترك كل شئ ونذهب إلي هناك فإن لم نرسم في ذهننا كل حين الدينونة العتيدة فلا ينفعنا شئ حين تظهر الخفيات والمكتومات لأن يوربعام ابن ناباط الذي أخطأ إلي إسرائيل سمع وقت ما بالرجز العتيد أن يوافيه من الرب فلم يتب عن شره .

وقد وبخ جحزي عن ذنوبه المكتومة فلم يُقَوِمْ خُلقه وإلا ما كان تركه معلمه في قباحة البرص لأن الذي طهر نعمان رئيس جنود الشام بقول الرب من مثل ذلك البرص قد كان يسهل عليه أكثر أن يزيل مصاب تلميذه .

فلنفحص إذاً في ذهننا كمال هذا العالم الحاضر لكي ما ننهض عقلنا النائم بانتظار الخوف المستأنف إلي عمل الأعمال الصالحة وحفظها لأن عمرنا أخف من الساعي ، فلنبكين إذاً خائفين جداً أن نوجد هناك من تلقاء ونية هذه الحياة تحت غيظ ملك المجد فنرسَل إلي الظلمة القصوى فإن الذين يمضي بِهم إلي هناك لا راحة لهم من العذاب ، ولا يراح المسجون من قبل خطاياه ، ولا ينفك من القيود ، لأن هناك ناراً لا تنطفئ ، ودوداً لا يموت ، وعمق هاوية مظلمة ، وولولة مذهلة ، وبكاء وقعقعة أسنان ، وشدائد ليس لها نِهاية ، لا يوجد بعد الموت راحة منها ولا حيلة ما ، ولا صناعة تفك التعاذيب لكن هذه الأشياء يمكننا الآن أن نخلص منها إن سمعنا صوت ربنا وإلهنا الذي بزيادة التعطف كرز به بنفسه وعلم البشر كمال كل قول وتمام كل فعل ليصيروا سامعين له .

فلكي نستريح من اختلاف التعاذيب ونؤهل للخيرات يلزمنا اضطراراً أن نحفظ بتواضع كثير أقوال الرب لأن حفظ وصاياه هو كمال والذين صبروا عاملين وصايا الرب نالوا الكمال منتظرين إياه باستقامة قلب ، وكل ساعة ينتظرون وروده المجيد ، وجلوسه علي عرش مجده حين يميز المقسطين من المخطئين ويكافئ كل أحد نظير أعماله ، فلنحفظ إذاً أيها الابن المحبة النقية لكي ما إذا قومنا بِها الفضائل نؤهل للوقوف عن يمين ابن اللــه الوحيد ويسر قلبنا ، وسرورنا لا ينتزعه أحد منا،

فقبل الأخ الوعظ قبولاً حسناً وثبت في السكوت شاكراً ربنا يسوع المسيح . الذي لـه المجد إلـي كافة الدهور. آمـين.